

مُختلصة لها معناها، وكانت تتجنب الحديث إليه وتتجنب أن تدعو حديثه إليها، ولكنها كانت تلتهم حديثه إلى غيرها من إخوتها التهامًا، تتسمع عليه إذا تحدث إلى رفاقه من بعيد، ثم كانت تؤثره بكثير من الطيبات، وكان لها إلى ذلك مسالك تملأ القلوب رحمة وحنانًا؛ فلم تكن تختصه بشيء دون غيره من إخوتها، وإنما كان عطفها على إخوتها وإيثارها إياهم بطيبات المطبخ والتنور، ودعوتها إياهم إلى ما يُلهي ويسر، كان هذا كله أكثر حين يزور سالم الأسرة ويُقيم فيها، وكانت الأسرة تلحظ ذلك كله فتتمازح به وتُداعب الفتاة فيه، وكانت الفتاة تسمع المزاح والدعابة فلا تجيب إلا برفع الكتفين وضحك فيه استهزاء بما يُقال، واعتراف في الوقت نفسه بأنه صحيح.

ولم تلقَ جلنار من خالتها شيئًا يسوءها في السر أو في الجهر، وإنما مضت أمورها على ما تحب وعلى ما تحب الأسرة، ولم تكن الفتاة تُعنى بأمرها عناية كثيرة ولا تلتفت إليها التفاتًا خاصًا، بل ربما شاركت إخوتها في مُداعبة هذا الشبح الذي لم يكن يعقل كثيرًا مما يقال له أو يجري حوله؛ فإذا عقل شيئًا وهمَّ أن يتكلم فيه نطق بما يملأ الدار ضحكًا، وضحك الشبح نفسه مع الضاحكين، فقد ألفت نفيسة أن تعيش على هامش الأسرة لا تُشارك في جدها وهزلها إلا أيسر المشاركة؛ فإن دخلت في شيء من أمر الأسرة أخطأت موضع العمل أو موضع القول، فأضحكت منها وضحكت من نفسها، وعادت إلى عزلتها هادئة مطمئنة، لا يُعرف أساخطة هي أم راضية، وأكبر الظن أنها لم تكن ساخطة ولا راضية، وإنما كانت تحيا حياة سلبية من كل وجه؛ تعيش نهارها لا تعمل شيئًا ولا تقول شيئًا، إنما تُدخِّن، وتشرب القهوة، وتنظر إلى ما في الدار من حركة، وتسمع إلى ما يدور حولها من حديث، تعقل من ذلك أقله وتغفل عن أكثره، وتأوي مع الليل إلى مضجعها لا يدري أحد أتنام فيه أم لا تنام، ولكنها كانت تأوي إليه في ساعة مُعينة، وتنب منه في ساعة معينة، فأما ما يكون بين هاتين الساعتين فعلمه عند الله، وأكبر الظن أن نفيسة لم تكن تعلم منه إلا قليلًا، وقد كانت الأنباء تأتي بأن سميحة ابنتها رزقت غلامًا أو صبية، وبأن سميحة ابنتها فقدت هذا الصبي من بنيتها أو هذه الصبية من بناتها، وكان هذا كله يُقال أمامها فتسمع وكأنها لا تسمع، ثم لا يظهر عليها فرح ولا حُزن، إنما هي الحياة الآلية التي لا تترك لصاحبها إرادة ولا تفكيرًا، إنما كانت «مُنَى» هي التي تفرح وتحزن لما يصيب سميحة من خير أو شر، وهي التي تسافر لتُجامل سميحة أو تواسيها، وربما عادت بسميحة إلى دار الأسرة لتجد فيها عزاء عما أصابها من خطب، أو سلوا عما نزل بها من هم، فإذا دخلت «سميحة» على أمها تلققتها هذه باسمه وقبلتها واجمة، ثم لم تزد على هذا الوجوم الباسم شيئًا.